الفصل الأول
اختراع الكتابة وأهمية التدوين في حياة البشر

يُعدُّ اختراع الكتابة الحد الفاصل بين عهدين : عهد ما قبل التاريخ والعصر التاريخي. والواقع أن الإنسان أصبح بالكتابة اجتماعياً متمدناً. ويميز العلماء في تاريخ الإنسانية بين عهدين العهد الذي لم تصلنا سجلات مكتوبة عنه، وهو عصر موغل في القدم، ومعلوماتنا عنه وصلتنا وتصلنا من البقايا المادية التي خلفتها شعوب تلك الفترة، والعهد التاريخي الذي يؤرخ عادة في أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد حيث بدأت تصلنا سجلات مكتوبة استطعنا أن نتعرف بواسطتها على حياة تلك الشعوب.

ولكن هذا لا يعني أن إنسان ما قبل التاريخ لم يكن يجيد التفاهم مع أقرانه، بالعكس نجد أن هذا الإنسان تمكن أن يطور نظاماً ممتازاً للتخاطب والاتصال بالآخرين من جنسه. أما كيف تم هذا الاتصال وكيف استطاع الإنسان الأول أن يوجد هذا النظام الممتاز للتخاطب والاتصال مع الآخرين من جنسه؛ فهذا ما لا نعرفه بشكل محدد لأنه غارق في مجاهل التاريخ السحيق، ولذا نلجأ إلى الخيال نرسل عنانه في تصورنا لبداية الكلام. يجوز أن تكون أول صورة بدت فيها اللغة ـ ويمكن تعريف اللغة أنها اتصال عن طريق الرموز، ويقصد بالرموز الأصوات والإشارات والتعبيرات والرسوم والكتابة ـ صيحة حب بين حيوان وحيوان. وإنك لترى في صيحات النذير والفزع، وفي مناداة الأم لصغارها، وفي الزقزقة والنقنقة التي يعبر بها الحيوان عن فرحه بصوته أو باتصاله بعشيرة من الجنس الآخر، الخطوات التمهيدية التي يجهد الحيوان نفسه في اجتيازها ليصل بها إلى مرتبة الإنسان الذي وصل بها إلى الذروة العليا ذروة الكلام. وإن الأصوات الحية التي تنبعث من الغابات، مع أصوات الحيوانات وأصوات الطبيعة ـ كالرعد والمطر ـ هي الأساس الذي استند إليه تطور الكلمات والألفاظ واللغة الملفوظة في الإنسانية كلها.

ويظهر أن الإشارات كانت لها الأهمية الأولى وللكلام المنزلة الثانية في تبادل الفكر في العصور الأولى. وربما كانت أول الألفاظ الإنسانية صيحات تعبر عن العواطف كما

هي الحال عند الحيوان، ثم جاءت الفاظ الإشارة مصاحبة للإشارة بالجسم لتعبر عن الاتجاه، ثم تلت ذلك أصوات مقلِّدة جاءت في أوانها المناسب لتعبر عن الأشياء والأفعال التي يمكن محاكاة أصواتها. ولا تزال كل لغة من لغات الأرض تحتوي على فئات من هذه الألفاظ التي تحاكي بأصواتها الأشياء والأفعال مثل : زئير، همس، تمتمة، قهقهة، أنين، زقزقة..إلخ.

إن كثيراً من لغات الشعوب البدائية بسيط في ألفاظه وبنائه، ولكن بعضها معقد البناء كثيرالكلمات مثل لغاتنا. ومع ذلك فتكاد اللغات البدائية كلها تحصر نفسها في حدود الحسي والجزئي؛ وهي بصفة عامة فقيرة في الأسماء الكلية والمجردة. فسكان أستراليا البدائيون الأصليون يطلقون اسماً على ذيل الكلب واسماً آخر على ذيل البقرة، ولكن ليس في لغتهم كلمة تدل على «ذيل» بصفة عامة.

ولا شك أن أجيالاً من الناس تعاقبت قبل أن يستطيع الإنسان أن ينتهي من اسم العلم إلى الاسم الكلي المجرد. وفي قبائل كثيرة لا نجد ألفاظاً تدل على الألوان مجردة عن الأشياء الملونة، كلا ولا نجد عندها كلمات تدل على مجردات مثل نغمة، جنس، نوع، غريزة، عقل، روح، خوف... فمثل هذه الألفاظ المجردة تُكون وتتزايد مع تقدم الفكر، لأن بينها وبين الفكر علاقة السبب والمسبب، وهي بعد تكوينها تصبح أدوات تعين على دقة التفكير، ورموزاً تدل على الحضارة.

إن الألفاظ لم تكن وسيلة للتفكير الواضح فحسب، بل كانت سبيلاً للإصلاح والتنظيم الاجتماعي كذلك؛ لأنها ربطت بين الأجيال المتعاقبة ربطاً عقلياً وثيق العرى، بأن هيأت لهم وسيلة أصلح للتربية من جهة، ولنقل المعارف والفنون من جهة أخرى. فبظهور ألفاظ اللغة ظهرت أداة جديدة تصل الأفراد بعضهم ببعض؛ بحيث يمكن للمذهب الواحد أو العقيدة الواحدة أن تصب أفراد الشعب في قالب واحد متجانس، وفتحت طرقاً جديدة لنقل الآراء وتبادلها وزادت عمق الحياة زيادة عظيمة، كما وسعت نطاقها ومضمونها. ولذا تُعدُّ التربية الميزة الثانية لألفاظ اللغة، بعد توسيعها للفكر، فالمدنية ثروة زاخرة تجمعت على الأيام من الفنون والسلوك والحكمة والأخلاق، ومن هذه الثروة الزاخرة يستمد الفرد في تطوره غذاء لحياته العقلية. ولولا هذا التراث البشري الذي يهبط إلى الأجيال جيلاً بعد جيل لماتت المدينة موتاً مفاجئاً، فهي مدينة بحياتها إلى التربية.

ولم تكن التربية البدائية تنتفع بالكتابة إطلاقاً، وإنما كان اعتماد الإنسان البدائي على الذاكرة؛ فترى الأفراد البدائيين يحفظون ما يريدون حفظه وينقلونه إلى أحفادهم من بعدهم. ولا شك أن اختراع الكتابة قد صادف معارضة طويلة من رجال الدين على اعتبار أنها ستؤدي إلى هدم الأخلاق.

وليس في وسعنا أكثر من التخمين لمعرفة أصل هذه اللعبة العجيبة التي هي اللغة، فيجوز أنها تفرعت عرضاً عن صناعة الخزف، وذلك بأن نشأت عن رغبة الناس في إثبات «العلامات التجارية» على ما يصنعون من آنية خزفية. وفي وسعنا أن نفترض أن الأرقام كانت بين أول طائفة من الرموز المكتوبة، وأنها في معظم الأحيان كانت تتخذ صورة خطوط متوازية تمثل الأصابع. فالأرقام الرومانية تشير بصورتها إلى أصابع اليد، والعلامة التي معناها خمسة «V» تصور يداً مفتوحة، والعلامة التي معناها عشرة × تتركب من علامتين من علامات الخمسة تقابلتا عند زاويتيهما.

وكانت الكتابة في بدايتها ضرباً من الرسم، أي أنها كانت نوعاً من الفـن، فقد استخدم الإنسان الصور لينقل أفكاره عبر المكان وخلال الزمان. لقد خلف سكان كهوف العصر الحجري الأول في أوروبا على جدران كهوفهم رسوماً وصوراً واضحة ودقيقة دقة مدهشة لبعض الحيوانات التي كانت موجودة آنذاك في أماكن عيشهم، ولكنها انقرضت الآن، مثل البيزون وغزال الرنة والحصان البري والماموث. ولقد رسم سكان هذه الكهوف أول الأمر صور الحيوانات كما هي، ثم بعد ذلك، رسموا ما يمكن أن يُعدَّ مقابلاً مبسطاً لها، ملخصات مختصرة يمكن اعتبارها حتى في زماننا هذا بديلاً ذكياً لكلمة «ماموث» أو «عنزة». لقد افتتحوا عصر الكتابة بدون أن يكونوا واعين لذلك وبدون أن يدركوا القوة العظيمة التي افتتحوا عهدها في تاريخ العالم.

ومما لا شك فيه أنه مرت آلاف السنوات قبل أن يدرك الإنسان أهمية ما خلقته يداه بهذه الكتابة التصويرية. كذلك وجدت بدايات كثيرة في أماكن كثيرة من أرجاء العالم استعملت فيها الكتابة التصويرية كلغة للتسجيل بشكل مستقل بعضها عن بعض. ولا تزال مثل هذ السجلات التصويرية مستعملة عند شعوب مختلفة كهنود أمريكا وأسكيمو القطب الشمالي.

ولقد تطورت هذه السجلات التصويرية في بعض الأماكن إلى أنظمة كتابية حتى

بالمعنى الحديث لكلمة كتابة. لقد كانت السجلات التصويرية البدائية تستعمل كمساعد للذاكرة أو لتبليغ اقتراحات أكثر من أن تكون إشارات دقيقة محددة لما تمثله. كيف تطورت هذه السجلات التصويرية حتى أصبحت كتابة حقيقية؟ لا يمكن إعطاء جواب تام ودقيق عن هذا السؤال، لأن ظروف هذه الخطوة العظيمة من خطوات التقدم الإنساني لا تزال مختفية وسط مجاهل عصور ما قبل التاريخ. ولكن طبيعة القضية كلها واضحة بشكل عام، وينبع ذلك من أقدم النماذج التي عثر فيها للكتابة الحقيقية والتي درست دراسة علمية جيدة، فقد اتضح من شكل وتفسير الأحرف التي استعملت في كتابة هذه السجلات المكتوبة الموغلة في القدم، أن الإنسان القديم الذي تمرن مدة طويلة على استعمال السجلات التصويرية قد استغل التشابه بين بعض الإشارات التصويرية وبين بعض الأغراض والأفكار، فحاول التعبير عن الثانية برموز مبسطة من الأولى. وهكذا تطورت الرموز التصويرية تدريجياً إلى ما يمكن تسميته «رموزاً فكرية» أو رموزاً تمثل أفكاراً كلية مشتقة من أشياء مادية. ولا شك أن الانتقال من تصوير الشيء ذاته إلى تصوير الفكرة التي يمثلها الشيء، أو تصوير الأفكار المجردة قد استغرق وقتاً طويلاً. ولكن ذلك تم على الغالب، إما بوساطة الخيال المبدع، أو بوساطة تجميع الرموز التي تدل على أشياء مادية واستعمالها من أجل التعبير عن فكرة أو شيء مجرد.

وهكذا فالرمز الدال على «الأذن» أمكن استعماله أيضاً للدلالة على «السمع»؛ ورمز «الشمس» أمكن استعماله من أجل «اليوم» وهكذا.

ولقد ظلت الكتابة التصويرية مستعملة دون انقطاع من أقدم عصورها حتى الآن، وتعـدُّ الكتابة الصينية الممثل البارز لهذا النوع من الكتابة في هذه الأيام. ولكن الكتابة التصويرية واجهت، منذ أقدم عصورها، عقبات خطيرة، وكان لها حدود لم تتمكن من تخطيها. لقد زادت الحاجة إلى مزيد من الرموز التي تدل على الأفكار والأشياء المجردة التي نمت وتطورت مع ازدياد النشاط الإنساني وزيادة تعقيده، ومع النمو المتواصل للأفكار، وهذا ما عجزت عنه الكتابة التصويرية.

ولقد بدأت بعض الشعوب القديمة تحاول التخلص من الصعوبات التي أوجدها اتباعهم الكتابة التصويرية المحضة، ذلك أن أقدم السجلات المكتوبة التي وصلتنا يبدو فيها واضحاً الانتقال من الكتابة التصويرية التي تمثل فيها الرموز الأفكار، إلى الكتابة الصوتية حيث تمثل الرموز الأصوات.

ولا شك أن إنجاز هذا التغيير والانتقال تطلب عدة آلاف من السنين، وذلك بسبب معارضة طبقة الكهان التي احتكرت هذا الامتياز لنفسها، ولأن ذلك يجعل الكتابة في أيدي الجماهير، وهذا مالا تريده الطبقة الممتازة التي احتكرت العلم والثقافة لنفسها.

إن من السهل أن ترى كيف تم الانتقال من الكتابة التصويرية إلى الكتابة الصوتية. لقد اقترنت أغلب الرموز التصويرية في أساليب الكتابة التصويرية القديمة مع أصوات الكلمات الملفوظة التي أعطيت لتسمية الأشياء التي تمثلها الرموز. ولقد كان من الطبيعي أن يمثل صوت ا لكلمة فذلك أسهل من استعمال الرمز. إننا نفترض أن مثل هذا التغيير قد بدأه بعض الكتاب القدامى عندما ووجهوا بكتابة بعض الأسماء الأجنبية أو بكتابة اسم أحد مواطنيه ولا رمز يمثله لديه. لقد استطاع أن يحل هذه المشكلة أفضل حل وذلك باستعماله المقاطع الصوتية التي تمثل الاسم الشاذ. فمثلاً مر مع الكاتب اسم Manhatten وليس لديه للتعبير عنه سوى الرموز التصويرية، وليس بينها رمز يدل عليه، ولذلك استعمل في كتابته ثلاثة رموز وهي رمز الإنسان Man ورمز القبعة Hat ورمز العشرة Ten. وإذا أمكن استعمال رمز الإنسان في هذه الكلمة أمكن استعماله في كل كلمة فيها صوت يمثله ذلك الرمز مثل كلمات Human وMandate .

ولكن القضية سارت شوطاً أبعد وأعقد فالرمز المكتوب الذي أمكن استعماله ليمثل صوت كلمة كاملة أمكن استعماله ليمثل رمز تلك الكلمة أو صوتها. وهكذا فرمز كلمة «رجل» التي تمثل بأحرفها الثلاثة رجلاً من الرجال أمكن استعمالها ليس فقط لصوت رجل، وإنما أمكن استعمالها أيضاً، مع تطور الكتابة الصوتية المستمر، لتمثل صوت رج، ومن ثم لتمثل حرف الراء.

لقد وصل قدماء المصريين بنجاح، إلى حد الاستطاعة أن يكتبوا كتابتهم بطريقة تصويرية أو صوتية، أو الطريقتين معاً. ويبدو أن أقدم النماذج في اللغة المصرية كانت تصويرية، فكانت كلمة «بيت» مثلاً يرمز لها بشكل مستطيل ذي فتحة في أحد طوليه. ثم تطور الأمر إلى الكتابة الفكرية الرمزية؛ فقد استعيض عن التصوير بوضع رموز للمعاني، فكان مقدم الأسد يعبر به عن السيادة. ثم تطورت هذه الطريقة تطوراً جديداً في نفس الطريق، فأصبحت المعاني المجردة التي عجزوا في بادئ الأمر عن تصويرها يعبر عنها برسم صور للأشياء تشبه أسماؤها مصادفة التي تعبر عن هذه المعاني، من ذلك أن صورة المزهر لم تكن تعني المزهر نفسه فحسب، بل كان معناها أيضاً «طيب أو صالح» لأن نطق اسم

المزهر في اللغة المصرية ـ نِفِر ـ شبيه بنطق اللفظ الذي يعبر عن معنى طيب أو صالح ـ نُفِر. وعلى هذا النحو عرف الكاتب المصري مقاطع الكلمة والصورة التي ترمز لكل مقطع ومجموعة الصور التي ترمز لكل لفظ، وبهذه الطريقة استطاع الكتاب أن يعبروا بالعلامات الهيروغليفية عن كل ما يريدونه. ولم يكن بين هذا وبين اختراع الأبجدية إلا خطوة واحدة. لقد كانت العلامة الدالة على البيت تعني أولاً كلمة بيت ـ بِر ـ ثم أصبحت رمزاً للصوت بِر ثم لهذين الحرفين أياً كانت حركتهما وفي أية كلمة وردتا، ثم اختصرت الصورة واستخدمت للدلالة على الباء أياً كانت حركتها وفي أية كلمة وردت.

لقد استعمل المصريون رموزاً كثيرة جداً أثناء تطويرهم لمثل هذا الأسلوب الصوتي من الكتابة، مما سبب لهم كثيراً من الاضطراب، فقد استعملوا حوالي عشرين رمزاً للحرف A وحوالي ثلاثين للحرف H وهكذا.

ولم يتخذ المصريون لهم كتابة قائمة كلها على الحروف الهجائية وحدها، ولا ندري لماذا، بل ظلوا حتى أواخر عهود حضارتهم يخلطون بين حروفهم وبين الصور الدالة على الرموز وعلى الأفكار وعلى مقاطع الكلمات. ولقد استعمل المصريون للكتابة على الآثار الكتابة الهيروغليفية المقدسة والمؤلفة من أربعمائة رمز هيروغليفي. وقد بسط الكتاب والكهنة هذه الكتابة المقدسة ومسخوها وأوجدوا منها كتابة أسهل وأسرع هي الكتابة الهيراطية. ثم نشأ على يد أفراد الشعب نفسه نمط آخر من الكتابة أكثر اختصاراً من النمط الثاني وأقل منه عناية ولذلك سمي بالكتابة الديموطية (الشعبية). ولكن المصريين كانوا يصرون على ألا ينقشوا على آثارهم إلا الرموز الهيروغليفية الفاخرة الجميلة.

ولقد جرى في قسم آخر من العالم القديم جهد مماثل لإيجاد وتطوير نظام صوتي للكتابة؛ قام به السومريون والبابليون ومن بعدهم الآشوريون في بلاد الرافدين. لقد تمكن السومريون والبابليون من إيجاد وتطوير نظام للرموز الصوتية، ولكن هذه الرموز اتجهت نحو أن تكون مقطعية. وهكذا فقد وجد إشارة مستقلة مكتوبة لكل من المقاطع التالية : كا، كو، كي...

وتَعدُّ الكتابة أروع ما خلفه السومريون الذين سكنوا جنوبي بلاد الرافدين منذ الألف الرابعة قبل الميلاد. والنقوش الحجرية أقدم ما عثر عليه من النقوش ويعود تاريخها إلى حدود ٣٠٠٠ ق.م. ثم تبدأ الألواح الطينية في الظهور من حوالي ٢٨٠٠ ق.م.

ولقد استعمل سكان وادي الرافدين الطين الطري مادة للكتابة، وكانوا ينقشون عليه ما يريدون نقشه بسن آلة حادة كالإسفين ولذلك سميت كتابتهم هذه المسمارية.

واستطاع كتابهم أن يسجلوا على هذه المادة الوثائق والبيوع والعقود والممتلكات والأحكام القضائية والأدب. وكان الكاتب إذا أتم ما يريد كتابته جفف اللوح الطيني في النار أو عرضه لحرارة الشمس فجعله بذلك مخطوطاً أبقى على الدهر من الورق. وكانت نشأة هذه الكتابة المسمارية وتطورها أعظم ما للسومريين من فضل على الحضارةالعالمية.

وتقرأ الكتابة السومرية من اليمين إلى اليسار، والبابليون، فيما نعلم، أول من كتب من اليسار إلى اليمين، ولعل الكتابة في سطور كانت نوعاً من العلامات والصور التي جرى بها العرف والتي كانت تنقش أو تصور على الأواني الخزفية السومرية البدائية. وأكبر الظن أن الصور الأصلية قد صغرت وبسطت خلال القرون الطوال حتى أصبحت شيئاً فشيئاً علامات تختلف في شكلها اختلافاً تاماً عن الأشياء التي كانت تمثلها فصارت بهذا رموزاً للأصوات لا صوراً للأشياء. ولم يخط السومريون الخطوة التالية في هذا التطوير فيجعلوا الرسم ممثلاً للحرف وحده دون الحركة فيفصلوا الحركة عنه حتى يمكن استخدام الحرف في ألفاظ أخرى .

ولقد كانت الكتابة السومرية أداة لتدوين الأعمال التجارية وتسجيل الأمور الدينية والقصص المقدسة والصلوات والتراتيل وما شابه. ثم بدأ السومريون يدونون الأدب والملاحم والتاريخ والرحلات. ولم تحل سنة ٢٥٠٠ ق.م حتى كان عدد كبير من دور الكتب العظيمة قد أنشئ في المدن السومرية، فقد كشف ده. سرزاك في مدينة تللو مثلاً، وفي أنقاض أبنية معاصرة لحكم (نموديا) مجموعة مؤلفة من ثلاثين ألف لوح.

ولقد ثبت من الأبحاث المتواصلة التي جرت، ومن دراسة اللوحات البابلية أن اللغة البابلية القديمة لغة سامية نشأت من تطور لغتي سومر وأكاد، وكانت تكتب بحروف سومرية، ولكن مفرداتها اختلفت عنها على مر الأيام، حتى استلزم هذا الاختلاف بين اللغتين السومرية والبابلية وضع معاجم وقواعد في النحو والصرف يستعين بها العلماء والكهنة الشبان على تفهم اللغة السومرية (الفصحى) والكتابات السومرية الكهنوتية.

والعلامات في اللغة البابلية كالعلامات في اللغة السومرية لا تدل على حروف وإنما تدل على مقاطع، ذلك أن البابليين لم يضعوا لهم حروفاً هجائية مستقلة، بل ظلوا طوال

عهدهم قانعين بطائفة من المقاطع التي كانت دراستها وحفظها عن ظهر قلب، مع دراسة الحساب والتعاليم الدينية، المنهج المقرر في مدارس الهياكل حيث كان الكهنة يلقنون الشبان ما هو جدير بالدرس والمعرفة.

وكما ذكرنا سابقاً استعمل السومريون والبابليون ألواح الطين للكتابة عليها، فإذا امتلأ اللوح كتابة حرقوه أو جففوه بالشمس، وإذا كان المكتوب رسالة نثر عليها التراب الناعم ووضعت في مظروف من الطين وبصمت بخاتم مرسلها الأسطواني. وكانت الألواح الطينية تحفظ في جرار وتصنف وترتب على الرفوف في عدد كبير من المكتبات في هياكل الدولة البابلية وقصورها. ولقد نسخت محتويات مكتبة بورسيبا وحفظت في مكتبة آشور بانيبال في نينوى. وتعدُّ ألواحها البالغ عددها ٣٠٠٠٠ لوح أهم مصدر استقينا منه معلوماتنا عن الحياة البابلية.

وتختلف اللغة الصينية عن سائر لغات العالم في أنها ليس لها حروف ولا هجاء ولا نحو ولا تنقسم إلى أسماء وأفعال وحروف. فكل كلمة قد تكون اسماً أو فعلاً أو صفة أو ظرفاً بحسب سياقها وطريقة النطق بها.

ولغة الكتابة الصينية أكثر اختلافاً عن سائر لغات العالم من لغة الكلام، وهي لا تزال تستعمل في التعبير عن اللغة الصينية. وكان الصينيون أول الأمر يعقدون عقداً في خيوط لينقلوا بها رسائلهم.

ثم ظهرت الرموز المصورة. وهذه الرموز المصورة البدائية هي منشأ العلامات الستمائة ـ وهي الرموز الأساسية في الكتابة الصينية. وقد جعل الصينيون لكل كلمة ينطقون بها علامة خاصة ولكل فكرة علامة خاصة. فهذه علامة يرمز بها للحصان، وهذه علامة أخرى يرمز بها للحصان الأحمر الأسود ذي البطن الأبيض وهكذا. ولا تزال بعض هذه الرموز بسيطة فالقوس فوق خط مستقيم (أي الشمس فوق الأفق) معناهما الصباح...

وقد استطاع أهل هذه اللغة أن يبقوها حية بمحافظتهم الشديدة عليها. والصعوبات الكائنة في هذه اللغة أوضح من مزاياها. ويقال إن الصيني يحتاج إلى ما بين عشر سنوات وخمسين سنة ليتعلم فيها جميع الأربعين ألف رمز التي تتكون منها كتابته. غير أن هذه اللغة وهذه الكتابة تجمع في نظام واحد من نظم الكتابة جميع سكان الصين الذين تختلف لهجاتهم اختلافاً يجعل التفاهم بينهم يكاد يكون مستحيلاً. إلى جانب التراث العظيم

الذي يحرص القوم عليه. لذا كانت الكتابة الصينية عامل توحيد في عالم مختلف، ولقد حرص القوم عليها وتمسكوا بها أشد التمسك لئلا يـؤدي التغيير إلى تمزق الأمة التي يحرصون على وحدتها أكثر من أي شيء آخر.

ولعل من المفيد، قبل أن نختم هذا الفصل، أن نأتي بلحمة موجزة عن قصة كشف وحل رموز اللغتين المصرية والبابلية، وهي قصة جديرة أن تروى وتعدُّ من أروع القصص في العالم إثارة.

إن علم الآثار المصرية الحديث هو نتيجة ثانوية من نتائج الحملة الفرنسية الاستعمارية وحملة نابليون بونابرت على مصر. فمن المعلوم أن نابليون لما غزا مصر سنة ١٧٩٨م اصطحب معه طائفة من العلماء المهتمين بتاريخ وآثار مصر. وقد كشفت هذه المجموعة من العلماء للعالم عن هياكل الأقصر والكرنك. ويُعدُّ كتاب «**وصف مصر**» الذي أصدره المجمع العلمي الفرنسي بين سنتي ١٨٠٩ ـ ١٨١٣م أول خطوة هامة في دراسة هذه الحضارة المنسية.

غير أن هؤلاء العلماء عجزوا عن قراءة النقوش التي تغطي الآثار المصرية. ولقد امتاز من بين هؤلاء العلماء عالم اسمه شامبليون؛ امتاز بذكائه وصبره وجده وجلده في دراسة هذه النقوش. وقد وجد في أحد هذه النقوش إطاراً ملكياً فيه اسمان يتكرران باستمرار فاعتقد أن الوسمين هما لبطليموس وكليوباترة. وكان استنتاجه صحيحاً واكتشف بهذه الطريقة سنة ١٨٢٢ أحد عشر حرفاً من الحروف الهيروغليفية. ثم درس هذا العالم حجراً أسود وجده جنود نابليون قرب مصب فرع النيل عند بلدة رشيد وسمي الحجر باسم حجر رشيد. وعلى الحجر نقوش بثلاث لغات : الهيروغليفية والديموطية واليونانية. واستطاع شامبليون بفضل علمه باللغة اليونانية وبالأحد عشر حرفاً التي عرفها سابقاً أن يحل رموز هذا النقش كلها، وذلك بعد جهد استمر أكثر من عشرين عاماً. وقد مهد السبيل بعمله هذا للكشف عن عالم مفقود. وكان هذا الكشف من أعظم الكشوف الأثرية في تاريخ التاريخ.

كذلك لا تقل قصة حل رموز الكتابة البابلية أهمية وإثارة عن قصة حل رموز الكتابة الهروغليفية. ذلك أن الكتابة البابلية حيرت العلماء زمناً طويلاً حتى تمكن سنة ١٨٣٥م هنري رولنسن أحد موظفي السلك السياسي البريطانيين في إيران أن يقرأ أسماء ثلاثة من

ملوك الفرس القدماء، هم هستسبس ودارا وحشار شاي، في نقش مكتوب بالخط الفارسي القديم وهو خط مسماري مشتق من الكتابة البابلية، وأمكنه بفضل هذه المعرفة أن يقرأ الوثيقة كلها. ولكن هذه الكتابة، وإن تكن مشتقة من البابلية، إلا أنها لم تكن البابلية نفسها. وبقي على رولنسن أن يعثر على نص مكتوب باللغتين الفارسية القديمة والبابلية، كما هو الحال مع حجر رشيد، وقد عثر على هذا النص في مكان يعلو عن سطح الأرض بنحو ٣٠٠ قدم. وهذا النقش قد نقش على صخرة هائلة يتعذر الوصول إليها عند بيهستون في جبال ميديا حيث سجل داريوس الأول انتصاراته بثلاث لغات الفارسية القديمة والآشورية والبابلية وأمر الحفارين فحفروها على سطحها. وقد ظل رولنسن يرقى هذه الصخرة يوماً بعد يوم معرضاً حياته لأشد الأخطار، ونسخ كل حرف من حروفها بعناية بالغة حتى تمكن بعد جهد دام اثنتي عشرة سنة كاملة من ترجمة النصين البابلي والآشوري سنة ١٨٤٧م. وأرادت الجمعية الآسيوية الملكية أن تتثبت من صحة ما توصل إليه رولنسن فأرسلت إلى أربعة علماء بالآثار الآشورية نصاً لم يكن معروفاً وطلبت إليهم ترجمته، ولما وصلت الترجمات وجدت متفقة إلى حد كبير جداً بحيث يمكن القول بوجود شبه تطابق. وبفضل هذا الكفاح العلمي المنقطع النظير توسعت دائرة البحوث التاريخية بما دخل فيها من علم بهذه الحضارة المنسية.